الفصل الرابع

العلاقات الدولية وظاهرة التخلف *

مقدمة :

بانتهاء الحرب العالمية الثانية بدا العالم وكأنه منقسم إلى ثلاث كتل متميزة : الأولى تمثل الدول الرأسمالية الصناعية الغربية ، بينما تضم الثانية دول المعسكر الاشتراكى . أما الثالثة فتتألف من المستعمرات التى ظلت خاضعة – لفترات متفاوتة – لسيطرة وتحكم دول الكتلة الأولى (١) . ومن يتتبع النظام الدولى خلال العقود الثلاثة الماضية يلحظ على الفور تغيرات أساسية طرأت على علاقة الدول الاستعمارية (أى دولة الكتلة الأولى) بالدول المستعمرة (أى دول الكتلة الثالثة) . من ذلك – مثلا – حصول كثير من الدول الأخيرة على استقلالها خلال عقد من الزمان (٢) . ولقد حصلت هذه الدول على مقاعدها داخل الأمم المتحدة محاولة قدر استطاعتها التأثير على بناء النظام الدولى المعاصر . ومن الأمور التى تستحق التسجيل هنا أن أغلب دول الكتلة الثالثة (أو العالم الثالث كما يفضل البعض أن يطلق عليها) قد حصلت على استقلالها بالوسائل السلمية ، اللهم إلا إذا استثنينا بعض الحالات القليلة (كما هو الحال بالنسبة للجزائر وكينيا خلال الستينيات ، وموزمبيق وروديسيا خلال السبعينيات) . ولا شك أن حصول هذه الدول على استقلالها بالوسائل

---

* سوف أقصر معالجتى فى هذا الفصل على علاقة الدول الغنية بالدول الفقيرة ، على أن أتناول فى مناسبة أخرى علاقة الدول الغنية ببعضها وعلاقة الدول الفقيرة ببعضها أيضاً . ولا شك أن هذه العلاقات المتعددة الأبعاد تستطيع أن تلقى مزيداً من الأضواء على ظاهرة التخلف .

(١) لا نستطيع أن نغفل فى هذا المجال المعالجات المبكرة التى ظهرت فى مطلع هذا القرن والتى تناولت علاقة الدول الغنية بالدول الفقيرة . انظر على سبيل المثال :

Hobson; j. O; Imperialism; London; 1902; V. Lenin; Imperialism; The Highest Stage of Capitalism; 1917.

(٢) ويكفى أن نشير فى هذا المجال إلى أن أكثر من خمسة عشر دولة أفريقية قد حصلت على استقلالها فى عام ١٩٦٠ وحده منها موريتانيا ، ومالى ، والسنغال ، وتوجو ، وداهومى ، وساحل العاج ، وفولتا العليا ، والنيجر ، ونيجيريا ، وتشاد ، والصومال ، والكاميرون ، وجابون . وفى سنة ١٩٦٢ حصلت أربع دول أفريقية على استقلالها هى : رواندا ، وأوغندا ، وبوروندى ، والجزائر .

السلمية يفرض علينا إعادة النظر فى التصورات والأفكار المتعلقة بطبيعة الاستعمار وعملية الحصول على الاستقلال ، وذلك فى ضوء الظروف الجديدة التى واجهتها دول العالم الثالث خلال السنوات القليلة الماضية [٣]

ويتعين علينا منذ البداية تسجيل حقيقة أولية مؤداها ، أن ثمة اتصالا فى علاقة الدول الغنية الاستعمارية بالدول الفقيرة المستعمرة ، اتصالا يبدأ من المواجهة المباشرة التى أدت إلى الاستعمار المباشر ، مرورا بالحكم الاستعمارى غير المباشر ، وصولا إلى الحكم الاستعمارى الجديد . ولسنا نعرف دولة فقيرة واحدة فى هذا العالم لم تفلت من واحدة من هذه المراحل . وإذا كنا نلحظ الآن بعض مظاهر الاستعمار الجديد فى أوربا [٤] ، فإن ذلك لا يمكن مقارنته باستعمار الدول الصناعية الرأسمالية المتقدمة للدول الزراعية الإقطاعية المتخلفة . ومن الأمور التى يتعين تسجيلها أيضًا أن الاستعمار الجديد قد أصبح يمارس تأثيره الشامل على الدول المتخلفة من خلال الشركات الكبرى [٥] والحكومات الإمبريالية الحديثة ، طالما أن سياساتها تخدم فى نهاية الأمر مصالح واحدة [٦] .

---

(٣) للتعرف على هذه الظروف الجديدة يمكن الرجوع إلى : السيد الحسينى ، العالم الثالث : تنمية أم تبعية ؟ فى : السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٤ . وفى هذا المقال يستطيع القارىء أن يجد تحليلاً نقدياً – من وجهة نظر شخصية – للنظريات الحديثة التى تناولت تنمية دول العالم الثالث ، كما يجد معالجة للمشكلات الواقعية التى واجهتها هذه الدول منذ حصولها على الاستقلال سواء أكانت مشكلات خارجية أم داخلية .

(٤) كما هو الحال بالنسبة للاستعمار البريطانى للبرتغال مثلاً .

(٥) استجاب الفكر الاجتماعى الحديث (وعلى الأخص الماركسى) للتطورات المختلفة التى طرأت على الاستعمار . فنجد الآن كتابات عديدة تحاول معالجة الصور المختلفة التى يتخذها الاستعمار الحديث بصفة خاصة وردود الفعل الصادرة عن الدول المتخلفة أزائه . لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى عدة مقالات جيدة فى :

Owen; R; Sutcliffe; B; (eds.) Studies in The Theory of Imperialism; London; 1972.

(٦) ولقد أوضح دومهوف Domhoff كيف أن « السياسة الخارجية الأمريكية خلال فترة ما بعد الحرب العالمية قد تحددت معالمها من خلال التأثير المباشر الذى كان يمارسه أصحاب الشركات الكبرى والمؤسسات التجارية الضخمة ، وأن الكونجرس والنقابات لم يكن لهما أى تأثير يذكر فى هذا المجال . مقتبس من :

Horowitz; D; Corporations and the Cold War; London 1969.

وللتعرف على مزيد من التفصيل ووجهات نظر مماثلة يمكن الرجوع إلى :

Magdoff; H; The Age of Imperialism; N.Y.; Monthly Review Press; 1966; and his «Economic Aspects of U.S. Imperialism ; Monthly Review; Nov. 1966; Alvi; H; «Imperialism Old and New»; The Socialist Register; London; 1964: Baran; P; Sweezy; P: Monopoly Capital; N.Y. Monthly Review Press; 1966; Bettelheim; C; «Economic Inequality Between Nations and International Solidarity»; Monthly Review; 12; Jun; 1970

وعلى الرغم من العناصر المشتركة فى الخبرات الاستعمارية التى مرت بها الدول المتخلفة ، إلا أن هناك وجوه اختلاف بينها يصعب تجاهلها . ذلك أن طبيعة هذه الخبرات تتوقف — إلى حد كبير — على طبيعة المجتمع المتخلف فيما قبل الاستعمار وعلى طبيعة القوة المستعمرة ذاتها ، فضلا عن الفترة التاريخية التى حدث فيها الاستعمار . لذلك فإن معالجة علاقة الدول الغنية بالدول الفقيرة تتطلب قدرا من التخصيص ، دون أن يشغلنا ذلك عن فهم العناصر المشتركة فى هذه العلاقة . وهنا نجد من الملائم تناول دول أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا تناولا مستقلا . فأمريكا اللاتينية — مثلا — تحولت من الاستعمار التقليدى إلى الاستعمار الحديث حوالى سنة ١٨٢٠ ، ولم يحدث هذا التحول بالنسبة لآسيا إلا حوالى سنة ١٩٥٠ ، بينما لم يحدث لأفريقيا إلا فى حدود سنة ١٩٦٠ . لقد استعمرت أسبانيا والبرتغال كل دول أمريكا اللاتينية ، لكن مالبثت هاتان الدولتان أن تحولتا (وعلى الأخص البرتغال) إلى مستعمرات تابعة لبريطانيا . ومن المدهش حقا أن نجد بريطانيا أول دولة فى العالم تمارس استعمارا حديثا فى دول أمريكا اللاتينية . ومع ذلك فلقد كانت المصالح البريطانية فى أمريكا اللاتينية محدودة نسبيا بسبب الانشغال الشديد بدول آسيا وأفريقيا التى كانت تمثل المورد الحقيقى للمواد الخام اللازمة للصناعات البريطانية . غير أن الشركات الأمريكية ما لبثت أن تحركت بسرعة بالغة لكى تسد الفراغ الذى شهدته دول أمريكا اللاتينية فى أواخر القرن التاسع عشر . وفى ضوء هذه الاعتبارات نستطيع عقد مقارنة بين الظروف التى مرت بها دول أمريكا اللاتينية منذ قرن من الزمان والظروف التى تمر بها دول أفريقيا وآسيا الآن . ففى القرن الماضى كانت هناك شركات بريطانية ضخمة ظلت تمارس سيطرتها على المستعمرات لحين حصولها على الاستقلال ، والآن نجد شركات أمريكية عملاقة تمارس نفوذها على مستوى عالمى شامل . وها نحن نشهد الآن رأس المال الأمريكى يتجه بسرعة مذهلة صوب أفريقيا من أجل استثماره فى الصناعات الاستخراجية ، كما نجده يحاول النفاذ إلى المستعمرات الفرنسية السابقة فى آسيا لكى يحولها إلى مستعمرات أكثر « استقرارا » . ولسوف نحاول فى تحليلنا هذا الاستشهاد ببعض الأمثلة الحية على ما نذهب إليه . ولنتناول أولا علاقة الولايات المتحدة بدول أمريكا اللاتينية ، ثم نتناول علاقة بريطانيا بدول أفريقيا .

أولا : الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية

كتب سيمون بوليفار Bolivar فى سنة ١٨٢٩ يقول : « يبدو أن القدر قد اختار الولايات المتحدة لكى تفرض سيطرتها ونفوذها على أمريكا اللاتينية وتسبب البؤس لسكانها تحت شعار براق هو الحرية » . وواقع الأمر أن دول أمريكا اللاتينية قد ظلت طوال قرنين ترزخ تحت نير استعمار أسبانى . وما أن حققت هذه الدول استقلالها حتى وجدت نفسها خاضعة لاستعمار بريطانى جديد ما لبثت أن ورثته الولايات المتحدة الأمريكية (٧) . ولقد أوضح فرانك فى دراسة متخصصة شهيرة (٨) كيف أن دول أمريكا اللاتينية قد شهدت بعد حصولها على الاستقلال صراعات حادة بين ثلاثة جماعات أساسية .

الأولى : تمثل أصحاب المصالح الزراعية والتجارية الذين يسعون إلى الارتباط بالمصالح الأجنبية ومن ثم تدعيم التخلف .

أما الثانية : فتضم أصحاب المصالح الصناعية الذين يعملون على مستوى محلى ويخضعون لتهديدات خارجية دائمة .

أما الثالثة : فتضم الأجانب الذين يحتكرون الصناعات الرئيسية فى البلاد . وعادة ما تنتهى هذه الصراعات لصالح الأجانب وكبار الرأسماليين الوطنيين ، مما يعنى إضعاف أصحاب المشروعات الصغيرة من الوطنيين . وإحدى النتائج المترتبة على ذلك تدعيم الاقتصاد التقليدى والحيلولة دون تحديثه ، ذلك أن الحفاظ على الطابع التقليدى للاقتصاد هو من مصلحة أطراف

---

(٧) Furtado; C; Economic Development of Latin America A Survey from Colonial Times to the Cubian Revolution; Cambridge; Cambridge Univ. press. 1970.

حيث نجد تحليلاً مستفيضاً للظروف الاستعمارية التى مرت بها دول أمريكا اللاتينية ، كما نجد دراسة شاملة لموقف هذه الدول من نظام تقسيم العمل الدولى . وفضلاً عن ذلك نجد معالجات لقضايا تنموية معينة مثل البناء التقليدى وسياسات التصنيع والعلاقات الدولية وأشكال التبعية (داخلية وخارجية) .

(٨) Frank; A; Capitalism and Underdevelopment in Latin America; London; 1969.

وفى هذه الدراسة نجد معالجة – من وجهة نظر شخصية لعلاقة التنمية الرأسمالية بالتخلف فى شيلى والبرازيل ، كما نجد بيانات إحصائية وفيرة تتناول علاقة الاستثمارات الأجنبية بتخلف دول أمريكا اللاتينية ، فضلاً عن نقد حاد لفكرة الثنائية التى روج لها بعض دارسى التخلف .

عديدة من بينها القوى الاستعمارية الخارجية والقوى الإقطاعية الوطنية الداخلية [٩] .

ولا يمكن تفسير التحولات التى طرأت على دول أمريكا اللاتينية فى ضوء الظروف العالمية وحدها ، ذلك أن قادة هذه الدول قد لعبوا دورا هاما فى تدعيم المصالح الأجنبية وتحويل بلادهم إلى ذيل تابع للنظام العالمى الاحتكارى . فخلال فترة قصيرة نسبيا بدأ الأجانب فى امتلاك مساحات ضخمة من الأراضى الزراعية الخصبة ، وإقامة مشروعات صناعية ترتبط بالسوق العالمية أكثر مما ترتبط بالسوق المحلية [١٠] . وما لبثت دول أمريكا اللاتينية أن أصبحت متكاملة شيئا فشيئا مع النظام الامبريالى الذى مثلته بريطانيا فى بادئ الأمر ، ثم الولايات المتحدة فى نهاية الأمر . يضاف إلى ذلك حقيقة هامة هى أن الاستغلال الاقتصادى لدول أمريكا اللاتينية قد ارتبط تاريخيا بتدخل عسكرى مباشر [١١] .

وعادة ما تميل الكتابات الغربية المحافظة إلى إبراز الطابع الإيجابى للمساعدات الاقتصادية الأمريكية التى تحصل عليها دول أمريكا اللاتينية ، تلك المساعدات التى تحمل أسماء براقة لا تعبر عن مضمونها . من ذلك – مثلا – برنامج « التحالف من أجل التقدم » . فلقد ظهرت فكرة هذا البرنامج فى مؤتمر عقد بأورجوارى سنة ١٩٦١ . ولقد حدد الرئيس كيندى فى رسالته لأعضاء المؤتمر مهمة هذا البرنامج على النحو التالى : « يسلم البرنامج بالحقوق الكاملة لكل الشعوب فى أن تشارك مشاركة كاملة فى صنع التقدم . إذ لا مكان فى الحياة الديموقراطية لمؤسسات تخدم قلة قليلة وتحرم كثرة كثيرة » . وبعد مضى أقل من عام على إقرار هذا البرنامج حصلت البرازيل على قرض من الولايات المتحدة قيمته خمسون مليون دولار . والهدف من هذا القرض كما تنص وثائقه « مساعدة الحكومة البرازيلية فى تدعيم التقدم الاقتصادى والاجتماعى فى ظل ظروف مالية مستقرة . وسوف يستخدم القرض فى استيراد سلع معينة من الولايات المتحدة . كما أن تسديد

---

(٩) السيد الحسينى ، علم الاجتماع والتنمية ، دراسة نقدية لاتجاهات علم الاجتماع فى فهم مشكلات الدول النامية ، فى السيد الحسينى وآخرون ، دراسة فى التنمية الاجتماعية ، المرجع السابق ، حيث نجد تحليلاً تاريخياً – بنائياً لظاهرة تخلف دول العالم الثالث ، كما نجد دراسة نقدية للاتجاهات النظرية المختلفة التى تناولت هذه الظاهرة .

(١٠) Luxemburg; R; the Accumulation of Capital; London; 1963

(١١) فعلى سبيل المثال نجد إنجلترا تحتل جزءاً من الأرجنتين فى سنة ١٨٣٣ ، وتحتل هندوراس فى سنة ١٨٣٥ ، وتغزو جواتيمالا فى سنة ١٨٣٦ . أما الولايات المتحدة فقد حرقت فى سنة ١٨٧٦ عاصمة نيكاراجوا . وفى سنة ١٨٦٠ غزت المكسيك وضمت ما يعرف الآن بتكساس . وفى سنة ١٨٧١ احتلت سانتودومينجو ، كما أقامت قاعدة بحرية فى بيرو فى سنة ١٨٨١ . وفى سنة ١٩٠٣ استولت على منطقة قناة بنما ، وفى سنة ١٩١٥ احتلت هايتى ، وفى سنة ١٩٢٦ غزت نيكاراجوا ، وفى سنة ١٩٥٤ أطاحت وكالة المخابرات الأمريكية بحكومة جواتيمالا ، وفى سنة ١٩٥٨ قدمت مساعدات عسكرية لديكتاتور كوبا باتستا ، وفى سنة ١٩٦٥ غزت جمهورية الدومنيكان ، وفى سنة ١٩٧٢ تآمرت على اغتيال سيلفادور الليندى رئيس شيلى .

هذا القرض سوف يتم على مدى أربعين عاما بعد فترة سماح تبلغ عشرة أعوام وبدون فوائد . أما التسديد فيكون بالدولار الأمريكى[١٢] .

والنظرة العابرة لهذا النص تشير إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية تمارس بالفعل سياسة تعاونية مخلصة . غير أن النظرة المتأملة له توضح استغلالا صريحا . فالبرازيل لم تحصل بالفعل على قرض بقدر ما حصلت على مبلغ لشراء سلع أمريكية . وهذا يعنى أن المبلغ الذى حصلت عليه البرازيل لم يغادر الولايات المتحدة[١٣] . يضاف إلى ذلك أن تكاليف إنتاج السلع الأمريكية التى تحصل عليها البرازيل هى فى ارتفاع مستمر ، مما يعنى أيضًا انخفاض قيمة القرض الذى حصلت عليه البرازيل . وخلال مؤتمر الأرجنتين الذى أقر فيه برنامج « التحالف من أجل التقدم » وعدت الولايات المتحدة دول أمريكا اللاتينية بتقديم قرض سنوى قيمته بليونى دولار . غير أن الاحتفاظ بقيمة هذا القرض تحتاج إلى إضافة ما يعادل ثلثه حتى يمكن مواجهة شروط التجارة الخارجية المفروضة على استيراد السلع الأمريكية . وفوق ذلك كله لا تقدم الولايات المتحدة مساعداتها الضخمة إلا للحكومات الديكتاتورية الرجعية التى تضمن الارتباط بها والابتعاد على مصالح شعوبها[١٤] . وإذن فالهدف الذى تسعى إليه الولايات المتحدة هو ضمان استمرار الأوضاع الراهنة فى دول أمريكا اللاتينية . ويتم ذلك بأساليب شتى تبدأ من السيطرة الاقتصادية حتى التدخل العسكرى .

والمحقق أن كل دول أمريكا اللاتينية – ربما باستثناء كوبا – لم تستطع حتى الآن الخروج من

---

(١٢) Gerassi J; The Great Fear in Latin America; London: 1967

(١٣) للتعرف على ديناميات هذه العملية الاقتصادية يمكن الرجوع إلى السيد الحسينى ، العالم الثالث : تنمية أم تبعية ؟ دراسات فى التنمية الاجتماعية ، المرجع السابق ، حيث نجد تحليلاً للأبعاد السياسية للمساعدات الاقتصادية ، والنتائج المختلفة المترتبة على ذلك . انظر أيضاً :

Worsley; P; «Problems of the Have-not World»; in Cunliffe (ed.) The Times history of Our Times; Weidenfeld Nicolson; pp. 43. 61; Perlo; V: the Empire of High Finance; N.Y.; 1966; Nkrumah; K; New Colonialism: The Last Stage of Imperialism; London; 1968; Nadel; H; Curtis; P. (eds.); Imperialism and Colonialism; N Y. Macmillan 1964.

(١٤) فى سنة ١٩٦١ بلغت قروض الولايات المتحدة لكل من جواتيمالا ٥.٣٠٠.٠٠٠ دولار ، وهايتى ١٣.٥٠٠.٠٠٠ دولار ، ونيكاراجوا ٢.٧٥٠.٠٠٠ دولار ، وباراجواى ٣.٩٥٠.٠٠٠ دولار . ويلاحظ أن هذه الدول كانت خاضعة لحكم ديكتاتورى . ويكفى أن نقارن ذلك بموقف الولايات المتحدة من كوبا . فى سنة ١٩٦٠ رفضت الشركات الأمريكية بيع البترول لكوبا وتزويد سفنها بالبترول ، وفى سنة ١٩٦٢ أعلنت قطع علاقاتها التجارية بكوبا ، وفى سنة ١٩٦٣ أعلنت أمريكا رفضها التعامل مع أية سفن تحمل أعلام دول تتعامل مع كوبا ، كما تم تجميد كل الممتلكات الكوبية فى الولايات المتحدة

الحلقة المفرغة التى فرضتها ظروف التبعية للولايات المتحدة . وقد تكون بيرو – خلال الفترة الأخيرة – مثالا حيا يوضح لنا المصير الذى يمكن تلافيه أى دولة تحاول الإفلات من السيطرة الأمريكية . فلقد أقدمت حكومة بيرو على تأميم بعض شركات البترول الأمريكية وإجراء بعض الإصلاحات الاجتماعية الداخلية . وكانت الاستجابة الطبيعية لذلك وقف المساعدات الأمريكية عن بيرو ، وبذل جهود مستميتة للحيلولة دون تغيير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التى كانت سائدة خلال فترة ما قبل التأميم . ولقد كللت هذه الجهود بالنجاح ، وعادت بيرو مرة أخرى خاضعة للسيطرة الأجنبية . وكان ذلك فى حد ذاته تخييباً لآمال الذين اعتقدوا أن بإمكان بيرو تحقيق التنمية بالوسائل السلمية (١٥) .

ويدفعنا هذا المثال لتناول ما يمكن أن يحدث لو أن دولة نامية كبيرو قد قررت عدم تسديد القرض الذى حصلت عليه من دولة متقدمة كالولايات المتحدة . هنا نجد احتمالات عديدة ليس أقلها التدخل العسكرى لإقامة « فيتنام جنوبية » أخرى ، أو محاولة الإطاحة بنظام الحكم المعارض للإمبريالية كما حدث فى كوبا فيما بين سنتى ١٩٦٠ و ١٩٦٤ . والواقع أن لدينا شكوكا كثيرة حول ما يمكن أن يسهم به النموذج الرأسمالى فى التنمية بالنسبة لدول أمريكا اللاتينية ، وتلك قضية ناقشتها فى مواضع أخرى ولا تزال تجد صدا قويا بين المعنيين بتحليل ظاهرة التخلف تحليلا تاريخيا بنائيا (١٦) .

وعلى الرغم من خطورة الدور الذى يلعبه القادة العسكريون فى دول أمريكا اللاتينية ، إلا أننا لا نجد دراسات نظرية منظمة سعت إلى تحليل معتقداتهم السياسية وعلاقاتهم بالقوى الشعبية الأخرى (١٧) . غير أننا نستطيع – مع ذلك – أن نلحظ نموا ملموسا فى الحركات الوطنية الشعبية . ومن الطبيعى أن تواجه هذه الحركات اختيارا محددا : إما أن تستمر فى التبعية للمصالح الأجنبية فى مقابل الحصول علس السلاح الذى تستطيع به الاستمرار فى السلطة ، وإما أن تعود إلى

---

(١٥) Petras; J; and Rimensayder; «What is Happening in peru? Monthly Review; Ferbuary 1970.

(١٦) انظر السيد الحسينى ، علم الاجتماع والتنمية ، المرجع السابق ، وانظر أيضاً ترجمتنا لمقال أندر فرانك ، علم اجتماع التنمية ، فى ميادين علم الاجتماع ، اختيار وترجمة محمد الجوهرى وآخرون ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٤ .

(١٧) See however M. Janowitz ; Military in the Political Development of New Nations; London; 1964 J.J. Johnson (ed.); The Role of the Military in Underdeveloped Countries; London; 1962; R.D. Putman; «Toward Explaining Military Intervention in Latin American Plitics»; World Politics; Vol. 20; No 1:1967.

الشعب لكى تحقق ثورة شعبية حقيقية . لكن واقع الأمر يشير إلى أن الحكومات العسكرية فى دول أمريكا اللاتينية لاتزال خاضعة – بشكل أو بآخر – للمصالح الأمريكية . ففى كل منها نجد أوليجاركية تحصل على دعمها من الدولار والسلاح الأمريكيين . ويحق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن مدى استقرار هذه الأنظمة العسكرية . فلو عقدنا مقارنة بين موقف القادة العسكريين فى دول أمريكا اللاتينية وموقف كبار الرأسماليين فى الدول الغنية ، لاحظنا أن موقف الأولين يتصف بالضعف الشديد ، لأنهم لا يمتلكون سوى قدر ضئيل من رؤوس الأموال ، وبالتالى لا يستطيعون التحكم فى الاقتصاد . بعبارة أخرى فإن قوتهم عسكرية قبل أن تكون اقتصادية .

وفضلا عن ذلك فإن الحركات الثورية فى دول أمريكا اللاتينية لاتلقى أى عون من الصين أو الاتحاد السوفييتى . فكل الأحزاب الشيوعية فى هذه الدول تسعى إلى الحصول على أكبر عدد ممكن من المقاعد داخل البرلمانات ، بل إن الاتحاد السوفييتى لم يقدم أية مساعدة لكوبا إلا بعد مرور عامين على استيلاء كاسترو على مقاليد الحكم . وهنا نجد من الملائم الإشارة إلى أحدث النظريات الثورية التى ظهرت فى أمريكا اللاتينية ، تلك التى قدمها ريجيس ديبراى[١٨] Debray فى سنة ١٩٦٨ ، وتتلخص هذه النظرية فيما يلى[١٩] :

أولا : أن ظروف دول أمريكا اللاتينية ملائمة الآن تماما للثورة . فأنظمة الحكم القائمة فيها تستند إلى القوى المسلحة التى تتحكم فيها الأوليجاركية الحاكمة ، تلك التى تجد سندها القوى فى الإمبريالية الأمريكية . وهناك مشكلتان متعاصرتان ومرتبطان ببعضهما ارتباطا وثيقا هما : تحطيم هذه القوى المسلحة ، وإعداد الجماهير سياسيا على نحو يمكنها من السيطرة على مقاليد الحكم والشروع فى إقامة مجتمع اشتراكى جديد .

ثانيا : أن حل هاتين المشكلتين يجب أن يتم بالطريقة التى تم بها فى كوبا ، أى بتأليف عصابات تنطلق بسرعة نحو تحقيق أهدافها . ذلك هو الجانب العسكرى الذى يتعين تنفيذه ، أما الجانب السياسى – وهو متزامن مع الجانب العسكرى – فيتمثل فى تحقيق ثلاث مهام سياسية للثورة :

(أ) ظهور قيادة سياسية وطليعة عسكرية من خضم النضال .

(ب) هزيمة القوى العسكرية النظامية التى تسند النظم الحاكمة فى معارك حاسمة .

---

(١٨) Debray; R; Revolution Within The Revolution; London; 1968.

(١٩) سوف أعتمد على تلخيص جيد لهذه النظرية قدمه هيرمان Huberman وسويزى Sweezy انظر :
Huberman; L; and Sweezy; P. (eds. Regis Debray and the Latin Aerican Revolution; London; 1968.

(جـ) أن تعمل العصابات على منح الجماهير طابعا سياسيا ، واضعة بذلك اللمسة النهائية لهذه الدراما الثورية .

هذا وقد أثارت نظرية ديبراى جدلا شديدا داخل الدوائر الأكاديمية الأوربية والحركات الثورية فى أمريكا اللاتينية على السواء[٢٠] . فلقد ظل جيفارا يدافع عنها دفاعا مستميتا حتى لقى مصرعه . والواقع أن جيفارا لم ينحرف عن الهدف الأساسى الذى وضعه نصب عينيه وهو تحرير أمريكا اللاتينية من الإمبريالية الأمريكية . ولقد تنبأ بأن ذلك قد يؤدى إلى ظهور فيتنام ثانية وثالثة فى أمريكا اللاتينية ، بل انه تنبأ بأن ذلك قد يودى بحياته ذاتها . ولقد قال كاسترو فى مناسبة تأبين جيفارا : « ظل جيفارا يدافع عن مصالح المقهورين من شعوب دول أمريكا اللاتينية . لقد مات وهو يناصر الفقراء فى كل أنحاء العالم . إن أعداء جيفارا لا يستطيعون إنكار ما كان يتحلى به من نزاهة وغيرية . إن التاريخ لا يستطيع أن يتجاهل أولئك العظام الذين نسوا أنفسهم وتوحدوا مع المطحونين . هم يعيشون فى قلب التاريخ ويكتسبون مكانة أسمى يوما بعد يوم[٢١] » .

ثانيا : أوربا وأفريقيا

بحلول عام ١٩١٩ كانت كل الدول الأفريقية تقريبا[٢٢] خاضعة لاستعمار أوربى[٢٣] . أما الآن فإننا نجد أكثر من أربعين دولة أفريقية قد حصلت على استقلالها ، ويشير ذلك للوهلة الأولى

---

(٢٠) انظر على سبيل المثال : P. Calvert; Revolution; Macmillan; 1970; L. Huberman P.M. Sweezy; Cuba: Anatomy of a Revolution; London 1968; Che Guevara; Guerilla Warfare; Pelican; 1970; J. A. Moreno; «Che Guevara on Guerrilla Warfare» Comparative Studies in Society and History; Vol. 12; No. 2 1970; E. Fridman; «Neither Mao; Nor Che»; Comparative Studies in Society and History; Vol. 12; No. 2; 1970; J. Petras; M. Zeitlin (eds.) Latin America: Reform or Revolution; 1968.

(٢١) مقتبس من :

Jenkins; R; Exploitation: The World Power Structure and the Inequality of Nations; London 1970.

(٢٢) باستثناء ثلاث دول هى : أثيوبيا وجنوب أفريقيا وليبيريا .

(٢٣) فبريطانيا كانت تحتل جامبكا ، وسيراليون ، وساحل الذهب ، ونيجيريا ، وجنوب غرب أفريقيا ، وروديسيا الشمالية والجنوبية ، وتنجانيقا ، وزنزبار ، وأوغندا ، وكينيا ، والسودان ، ومصر . بينما كانت تحتل فرنسا كلا من الجزائر وتونس والمغرب وغرب أفريقيا الفرنسى ، وتوجولاند ، والكاميرون ، ومدغشقر . أما البرتغال فكانت تسيطر على غينيا ، وأنجولا ، وموزمبيق ، وكابيندا ، بينما كانت أسبانيا تسيطر على ريودى أورو ، ورويومينى ، وغينيا الأسبانية . أما بلجيكا فكانت تحتل الكونغو ، بينما كانت تحتل إيطاليا كلا من أرتريا وليبيا .

إلى أن الدول الأوربية الاستعمارية قد تخلت عن طابعها الإمبريالى ، وأن الإفريقيين قد أصبحوا يتحكمون فى مصائرهم . لكن النظرة المدققة توضح أن تغيرات سياسية معينة قد حدثت بالفعل ، إلا فيما يتعلق بالعلاقات الاستغلالية التى تربط الدول الأفريقية المتخلفة بالدول الأوربية المتقدمة . والواقع أن فهم ما حدث فى أفريقيا بعد الاستقلال يتطلب منا تحليل بناء الاستعمار ذاته ودراسة كل صور النضال الذى مارسته الشعوب الأفريقية المختلفة من أجل الحصول على الاستقلال . فهناك دول أفريقية شنت حروبا تحررية طويلة ضد الاستعمار قبل أن تحصل على استقلالها ، وهناك دول أخرى حصلت على استقلالها بالوسائل السلمية والدستورية . ففى الجزائر – مثلا – حارب الشعب من أجل الحصول على استقلاله سبع سنوات كاملة استخدم فيها الفرنسيون كل الأساليب التكتيكية لقمعه ابتداء من تدمير قرى بأكملها حتى التمثيل بجثث المناضلين[٢٤] . أما غانا فقد حصلت على استقلالها المبدئى عن طريق مفاوضات أسفرت عن استبدال الحكام البريطانيين بحكام غانيين موالين لبريطانيا . وإذا كان نكروما قد شن هجوما على هذا النوع من الاستقلال مما أدى به إلى السجن لفترة معينة ، إلا أن حزبه ما لبث أن نجح فى انتخابات ١٩٥١ ، ممهدا بذلك لمفاوضات بالغة الدقة بينه (أى نيكروما) وبين الحاكم البريطانى كلارك Clarke . ومن الواضح أن هناك اختلافا ملحوظا بين سبل تحقيق الاستقلال فى كل من الجزائر وغانا . غير أن تحليل تاريخ هاتين الدولتين منذ حصولهما على الاستقلال يشير إلى وجود وجوه شبه ملحوظة يتعين ألا نغفلها فى زحمة اهتمامنا بسبل تحقيق الاستقلال . إن أساليب تحقيق الاستقلال لا تعبر وحدها عن جوهر حركة التحرير . فهناك فارق عظيم بين حرب تسعى إلى تحقيق التحرر الوطنى وحرب تسعى إلى تحقيق ثورة اشتراكية : الحرب الأولى تحاول تغيير أساليب الاستبداد ، ولكنها لا تغير بناءه ، أما الثانية فتطيح بالمستبدين كلية . وربما كان أميكار كابرال Cabral هو أول قائد تحررى أفريقى أظهر وعيا شديدا بالتفرقة بين هذين النوعين من الحرب خلال حركته الثورية من أجل تحرير غينيا البرتغالية . ولقد ذهب كابرال إلى « أن حركات الاستقلال الوطنى تلقى فى الواقع دعما من الأنظمة الاستعمارية بل وتشاركها أهدافها

---

(٢٤) تعبر كتابات فرانتز فانون عن ذلك أصدق تعبير . ولقد تضمنت كتاباته تحليلات فينومينولوجية للثورة الجزائرية . انظر على سبيل المثال :

Franz Fanon; The Wretched of the Earth; Penguin; Studies in Dying Colorialism N.Y. 1965. Toward The African Revolution, Pelican; 1970; Black Skins; White Masks, London; 1968. See also P. Worsley «The Revolutionary Theories of Fanon»; Monthly Review; Vol. 21; May. 1969.

المتمثلة فى الحد من اتساع نفوذ المعسكر الاشتراكى ، والحفاظ على القوى الرجعية فى أفريقيا ، وتمكين هذه القوى من التحالف مع البرجوازية العالمية [٢٥] .

وإذا ما سلمنا بأن قوى الاستعمار عادة ما تكون أشد بأسا من قوى التحرر الوطنى ، فسيترتب على ذلك حقيقة هامة هى ؛ أن النتاج النهائى للنضال يتحدد – إلى حد كبير – من خلال القوى الأولى . ولقد كانت غانا أول مستعمرة بريطانية حصلت على استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية ، وما لبث أن أصبح هذا الاستقلال الغانى نموذج يمكن احتذاؤه سواء من جانل القوى الاستعمارية أو قوى التحرر الوطنى . ولعل ذلك يفسر لنا كثرة الكتابات التى تناولت التجربة الغانية [٢٦] . ومن الطبيعى أن تختلف التفسيرات التى يقدمها قادة التحرر الوطنى عن تلك التى يقدمها الكتاب والحكام الغربيون . ولقد أوضح هذه الحقيقة بجلاء كل من فيتش Fitch وأوبنهايمر Oppenheimer حينما قارنا بين التصورات المتناقضة لحركة الاستقلال لدى كل من زعماء التحرر الوطنى فى غانا والحكام البريطانيين [٢٧] . فالأولون يذهبون إلى أن الحركة الوطنية قد أيقظت روح التحرر فى المدن ودعمت الوعى السياسى لدى الفلاحين ، وبالتالى مارست ضغوطا هائلة على السلطات البريطانية . وباختصار فإن التفاف الأمة الغانية بأسرها حول الحزب لم يجعل لبريطانيا من سبيل سوى الاستجابة لمطلب الحكم الذاتى . أما الأخيرون (البريطانيون) فينكرون اضطرارهم لترك غانا كلية ؛ ذلك أن الحكومة البريطانية – كما يقولون – كانت دائما (وستظل) على استعداد لأن تمنح المستعمرات استقلالها ، شريطة أن تتمكن من الاعتماد على نفسها وتدبير شئونها .

والواقع أن التصورين السابقين يتضمنان جانبا من الحقيقة ، ولكنهما – مع ذلك – يتجاهلان الحقيقة بأكملها . فبريطانيا لا تمنح الاستقلال لأى من مستعمراتها ، إلا إذا ضمنت وجود جماعات سياسية وطنية قادرة على حماية المصالح البريطانية فى البلاد . أما فى حالة عدم وجود مثل هذه الجماعات فإن الحصول على الاستقلال قد يتأخر لفترة معينة من الزمن كما حدث فى كل من غينيا البريطانية ، وعدن ، وكينيا . ولا شك أن كابرال كان على صواب حينما اهتم بدراسة

---

(٢٥) Cabral; A; Revolution in Guinea; London; 1969.

(٢٦) سواء كانت كتابات محلية (غانية) أو أوربية (بريطانية أساساً) . ويمكننا أن نشير فى هذا المجال إلى مؤلفين يعكسان لنا ذلك بوضوح . الأول كتبه كوامى نيكروما ، والثانى كتبه كلارك . انظر :

Nkrumah; An Autobiography; London 1957; Arden-Clarke; Eight Years of Transition in Ghana: End of an Illusion; London; 1966; P. 11.

(٢٧) Fitch; B; and Oppenheimer, M; Ghand: End of an Illusion: London; 1966, p. 11.

اتجاهات الحكام البريطانيين نحو حركات الاستقلال فى المستعمرات البريطانية . إذ إن مثل هذه الدراسة تحدد لنا ردود الأفعال الواقعية المتوقعة التى تصدر عن هؤلاء الحكام حينما يواجهون موقف منح الاستقلال . وقد يكون ذلك فى حد ذاته مبررا لتناول التجربة الغانية بشىء من التفصيل .

فلقد بدأ حزب المؤتمر الشعبى تاريخه القصير بحشد الجماهير لتحقيق ما أطلق عليه نيكروما « العمل الإيجابى » ، ودعا لهذا السبب إلى إضراب عام فى نهاية سنة ١٩٤٩ . ومع ذلك فلقد كان نكروما – فى نفس الوقت – يسعى إلى الوصول إلى حل توفيقى مع الحكومة البريطانية ، مما قلل من النتائج التى كان يمكن أن يسفر عنها هذا الإضراب ، وشجع البريطانيين على القيام بعملية استقطاب لقيادات الحزب[٢٨] . وما أن حصلت غانا على استقلالها الرسمى حتى دخلت مرحلة استعمارية جديدة ، بدت معالمها أوضح ما تكون فى فشل ما يعرف « بخطة لويس » ، وهى الخطة التى اعتمدت اعتمادا كليا على رؤوس الأموال الأجنبية فى تصنيع البلاد[٢٩] ، والواقع أن غانا لم تتمكن من جذب كل رؤوس الأموال الضرورية لولوجها تلك المرحلة التى أطلق عليها والت روستو Rostow « الانطلاق نحو النمو الذاتى » ، بل إنها – بدلا من ذلك – واجهت صعوبات كثيرة فيما يتعلق بشروط التجارة العالمية وعلى الأخص تسويق منتجاتها الأساسية[٣٠] . ولقد كان أحد نتائج ذلك اضطرار غانا للجوء إلى الكتلة الاشتراكية من أجل الحصول على مساعدات اقتصادية[٣١] . وواقع الأمر أن التغييرات التى حدثت فى غانا خلال عام ١٩٦١ جاءت

---

(٢٨) وهذا ما اعترف به كلارك نفسه ، انظر :

Arden-Clarke; Eight Years of Transition in Ghana; op cit; p. 36.

ولقد أوضح فيتش واوبنهايمر أن حصول غانا على الاستقلال ، بدأ نكروما وأعضاء الحزب وكأنهم أقل معارضة للمصالح البريطانية . فبريطانيا ما تزال تتحكم فى أجهزة الأمن والجيش ، والحاكم البريطانى لا يزال يحتفظ بصلاحيات استثنائية . كما أن الموظفين البريطانيين ظلوا يشغلون الوظائف القيادية الأساسية . بل إن الميزانية العامة لغانا كانت تعتمد فى لندن وترسل بعد ذلك إلى أكرا . انظر .

Fitch; and Oppenheimer; op. cit. p. 38.

(٢٩) See for details; Lewis; A; The Principles of Economic Planning; London; 1963.

(٣٠) فعلى سبيل المثال تضاعف إنتاج الكاكاو فى الفترة من ١٩٥٥ حتى ١٩٦٥ من ٢٠٦,٠٠٠ طن إلى ٤٩٣,٠٠٠ طن ، بينما لم ترد قيمة الصادرات إلا بنسبة محدودة جداً (من ٥٦,٦ مليون جنيه إلى ٦٨,٢ مليون جنيه) . وكان من نتيجة ذلك أن فقدت غانا جانباً كبيراً من أرصدتها الخارجية . مما أثر على ميزان مدفوعاتها تأثيراً بالغاً .

(٣١) ولقد أوضح بيرمنجهام Birmingham وآخرون أن الأجور الفعلية فى غانا كانت فى سنة ١٩٦١ أقل منها فى سنة ١٩٣٩ ، وأن نسبة البطالة كانت ترتفع بنسبة ٢٠٪ للرجال و ٦٠٪ للنساء .

Birmingham; W. (ed.) et al. A Study of Contemporary Ghana; London; 1966; p. 149.

=

متأخرة نسبيا وأضعف من أن تواجه مشكلات التخلف التى عانت منها هذه الدولة . فعلى الرغم من أن غانا قد نجحت فى جذب قروض أجنبية ضخمة ، إلا أن أغلبها كان من النوع القصير المدى الذى وجه لمشروعات تدعيم موقف الحكومة أولا وقبل كل شىء كما هو الحال فى مشروع سد الفولتا . ومن هنا يمكن القول إن الخطة الاقتصادية التى تبنتها الحكومة الغانية لم ترفع مستوى معيشة الشعب بقدر ما أفادت الشركات العالمية الاحتكارية . وبحدوث الانقلاب العسكرى [٣٢] فى سنة ١٩٦٦ ، بدأت غانا تدخل مرحلة جديدة من التبعية الاقتصادية والسياسية .

والواقع أن كثيرا مما قيل عن غانا يمكن أن يقال أيضًا عن دول أفريقية أخرى مثل السودان ، وتوجو ، وتنزانيا ، وداهومى ، وأوغندا ، وفولتا العليا ، وسيراليون ، ونيجيريا . ففى كل هذه الدول لعب الجيش دورا هاما سواء فى إعادة تشكيل البناء الداخلى أو فى رسم علاقة هذه الدول بالدول المتقدمة . ولا يمكن تحليل مثل هذا الدور إلا إذا أخذنا فى اعتبارنا نسيج العلاقات الدولية المعاصرة ، وعلى الأخص علاقات القوة التى تربط الدول المتقدمة بالدول المتخلفة . ومن الحقائق المرتبطة بذلك تلك الحدود المصطنعة التى فرضتها القوى الاستعمارية على الدول الأفريقية . ويكفى أن نشير فى هذا المجال إلى الحروب الأهلية الضارية التى خاضتها دول كنيجيريا والسودان والصومال . ولقد عبر نيكروما عن هذه النقطة تعبيرا دقيقا حين قال : « إن أشد الأخطار التى تواجه أفريقيا هو الاستعمار الجديد بأداته الأساسية المتمثلة فى بلقنة هذه القارة[٣٣] » .ومؤدى عملية البلقنة هذه إقامة دويلات صغيرة اقتصاديا ، وإن كانت – مع ذلك – تستطيع أن تتخذ موقف مساومة ضعيف أمام الدول الغنية والشركات الكبرى . وإذن فهذه الدويلات تخضع مباشرة لتبعية استعمارية واستغلال أجنبى . إذ إنها لا تمتلك القدرة على التصنيع أو حتى تنويع منتجاتها الزراعية . إنها باختصار تخدم مصالح المستعمرين . ولعل ذلك يفرض على الدول الأفريقية اتخاذ مواقف حاسمة منها عدم الاهتمام الشديد بالحدود المصطنعة التى خلفها الاستعمار ، والاتجاه نحو الوحدة الاقتصادية والسياسية حتى تستطيع أن تجنى الفوائد التى يحققها الاقتصاد الواسع النطاق ،

= وفى محاولة لمواجهة هذا الموقف حاولت الحكومة الغانية فرض ادخار إجبارى قيمته ٥٪ على كل الدخول ، لكنها ما لبثت أن واجهت إضراباً عاماً فى اليوم الأول لتنفيذها هذا الادخار . وفى سنة ١٩٦١ طالب نيكروما بتنفيذ ما أطلق عليه «خطة السنوات السبع من أجل العمل والسعادة» . وإذا كانت رؤوس الأموال الأجنبية قد مثلت بعداً أساسياً فى خطة لويس ، فإننا نجد الدولة فى خطة نيكروما تمثل الآلة المحركة . أما وقود هذه الآلة فيأتى من المستثمرين الأجانب انظر .

Fitch and Oppenheimer; op. cit p. 89.

(٣٢) وهو الانقلاب العسكرى الذى حدث ضد نكروما فى أوائل سنة ١٩٦٦ حينما كان فى زيارة لبكين .

(٣٣) Nkrumah; K; Neocolonialism; The last Stage of Capitalism; London; 1965; p. 173.

وأن تحصل بذلك على موقف مساومة قوى يمكنها من الصمود داخل السوق العالمية[٣٤] .

والواقع أن هناك وجوه شبه عديدةبين التجربة الغانية وكثير من التجارب الأفريقية الأخرى . والسبب الرئيسى لذلك هو أن القوى المسئولة عن « المأساة الغانية » توجد أيضًا فى كثير من الدول الأفريقية . فلا يزال قادة هذه الدول يهونون من الآثار التى يحدثها الاستعمار الجديد ، ويبالغون فى الدور الذى يمكن أن تحدثه الاستثمارات الأجنبية . إن تحليل مضمون تطورات هؤلاء القادة عن التنمية يوضح تأثرهم الشديد بمراحل النمو الاقتصادى التى حددها روستو ، تلك المراحل التى لا تستند إلى دعائم امبيريقية وكفاءة نظرية[٣٥] . ومن الأمور التى يتعين تسجيلها هنا أن أغلب القادة الأفريقيين قد ملكوا مقاليد الحكم فى دولهم بعد تحقيق الاستقلال ، وما لبثوا أن وجدوا فى التجربة الغانية بقيادة نيكروما مثالا يمكن الاحتذاء به ، خاصة وأن نيكروما ظل يتمتع بجاذبية أيديولوجية قوية طوال فترة حكمه . والمؤكد أن الحكومات الأفريقية تواجه موقفا مزدوجا : فهى لا تستطيع الاستمرار فى قياداتها دون الارتباط بالمستثمرين الأجانب ، وهى لا تستطيع – فى نفس الوقت – التخلى عن مشروعات التنمية وإصدار وعود وعهود برفع مستوى المعيشة[٣٦] .

وقد يكون صحيحا أن الاستقلال الذى حصلت عليه الدول النامية قد ارتبط – بوجه عام – بارتفاع مستوى معيشة البرجوازية الوطنية التى ترتبط أوثق الارتباط بذلك القطاع الاقتصادى المرتبط بالعالم الخارجى الاحتكارى ، لكننا يجب أن ندرك – فى نفس الوقت – أن ظروف أغلب الدول النامية فيما بعد الاستقلال لم تشهد تحسنا ملحوظا فيما يتعلق بمستوى معيشة فقراء

---

(٣٤) نستطيع أن نجد دفاعاً قوياً عن هذه الفكرة عند جرين Green وهو يشغل الآن منصب المستشار الاقتصادى لوزارة الخزانة التزانية . انظر :

Cooper; D; The Dialectics of Liberation; London; 1968.

(٣٥) للتعرف على الانتقادات التى توجه إلى هذه المراحل انظر دراستنا عن علم الاجتماع والتنمية ، المرجع السابق ، وانظر ترجمتنا لمقال فرانك ، علم اجتماع التنمية ، المرجع السابق .

(٣٦) ومع ذلك يمكننا أن نسجل هنا ملاحظة هامة هى أن الحكومات الأفريقية التى تشكلت خلال حركات الاستقلال لم تعمر طويلاً . أما الحكومات التى ملكت مقاليد الحكم بفضل المفاوضات والتوفيق مع القوى الاستعمارية القديمة فإنها ستكون عرضة لأن تفقد جانباً كبيراً من شعبيتها إذا ما سمحت الرؤوس الأموال الأجنبية المستغلة بالتغلغل فى الأنشطة الاقتصادية الحيوية .

وفضلاً عن ذلك لوحظ أن الصفوات التى أتت إلى الحكم من خلال حركات النضال من أجل الاستقلال ما لبثت أن اختفت لتحل محلها صفوات عسكرية تخدم مباشرة مصالح رؤوس الأموال الأجنبية المستغلة . ولعل ذلك يؤكد كثيراً من القضايا التى أشرنا إليها فى معرض تناولنا لعلاقة الولايات المتحدة بأمريكا اللاتينية . فأهداف الاستعمار الجديد فى القارات الثلاث واحدة تماماً . انظر :

Green; R; and Seidman; A; Unity or Poverty; London; 1968.

المدينة ومعدمى القرية[٣٧] . ويكفى للتدليل على ذلك الاستشهاد بما حدث فى معظم الدول الأفريقية بعد حصولها على الاستقلال . فالحياة بالنسبة للغالبية العظمى من شعوبها تزداد قسوة وصعوبة ، لسبب بسيط هو أن الحصول على الاستقلال لم يصابه تحطيما للأساليب الاستغلالية الاستعمارية ، ولم يلازمه تقويض للصفوة البرجوازية التى تعيش على الامتيازات التى تجنيها من وراء تعاملها مع الدول الكبرى والشركات العالمية العملاقة[٣٨] . ولو أمعنا النظر فى الآثار السلبية التى أحدثها الاستعمار الجديد على الدول النامية ، لاحظنا أنها لم تنعكس فقط على صغار الفلاحين والعمال المأجورين ، بل انعكست أيضا على الصفوات الحاكمة ذاتها . فى أغلب الدول الأفريقية نلحظ « دورات صفوة » لا تكف عن التعاقب ابتداء من الإدارة الاستعمارية القديمة ، مروراً بالحكومة الوطنية التى حققت مطلب الاستقلال ، وصولا إلى البيروقراطية العسكرية ، ولقد تدربت هذه الصفوات الثلاث على الإدارة فى ظل الظروف الاستعمارية القديمة . وتبنت من أجل ذلك – أيديولوجيات تكاد تكون متشابهة .

والنظرة العابرة لتاريخ أفريقيا فيما بعد الحرب العالمية الثانية ' تشير إلى أن أكثر من ربع دول هذه القارة قد شهدت على الأقل « دورة صفوة» . ومن اللافت للنظر أن الدول الأفريقية التى لم تشهد انقلابات عسكرية متعاقبة قد استطاعت إدراك ذلك الجانب من الاستعمار الجديد ، أعنى إحداث فوضى سياسية دائمة . ولعل ذلك هو ما شجع هذه الدول على تبنى سياسة الحياد الإيجابى فى محاولة لكسر الاحتكار الاقتصادى الذى تمثله القوى الاحتكارية القديمة ، ثم عقد اتفاقيات وصفقات مع قوى جديدة هى الكتلة السوفيتية والصين . والواقع أن استمرار بقاء هذه الحكومات يتوقف – فى جانب منه – على القدرة على انجاز هذه الاتفاقات والصفقات . وقد تكون زامبيا ومصر وتنزانيا وغينيا أمثلة حية على ما نقول . فلقد استطاعت حكومات هذه الدول إحداث تغييرات أساسية فى البناء الاقتصادى لدولها محطمة – إلى حد كبير – نفوذ الشركات العالمية الاحتكارية[٣٩] ، ولقد حاول نيكروما فى أواخر حكمه تحييد النفوذ البريطانى بأن أرسل فرقا عسكرية إلى بكين للتدريب والتسليح . غير أن هذه الفرق كانت محدودة الحجم إلى حد كبير إذا ما قورنت بالفرق التى كانت تتلقى تدريبها العسكرى على أيدى البريطانيين . ونستطيع أن نجد

---

(٣٧) Legum; C; Pan-Africanism; London; 1962.

(٣٨) Green; R; and Seidman; A; Unity or Poverty op. cit.

(٣٩) للتعرف على تحليل مماثل بالنسبة لأمريكا اللاتينية انظر :

Frank; A. G; Capitalism and Underdevelopment in Latin America; op.cit

تكرارا لما حدث فى غانا فى دول أفريقية أخرى كتنزانيا وغينيا . فى مجال التجارة – مثلا – شجعت حكومتا هاتين الدولتين الاستثمارات الخاصة المتدفقة من القوى الغربية ، فى الوقت الذى ظلت تحافظ فيه على علاقاتها التجارية مع الدول الشيوعية.وهذا يعنى أن الدول الأفريقية تحاول الإفادة قدر الإمكان من الصراع الدائر بين المعسكر الغربى الرأسمالى والمعسكر الشرقى الشيوعى . ومع ذلك فتلك حقيقة تحتاج إلى مزيد من التحليل . فعلى الرغم من أن الدول الأفريقية قد بدأت توسع معاملاتها (السياسية والعسكرية والاقتصادية) مع الدول الشيوعية ، إلا أن أيا من هذه الدول ليس على استعداد لأن يكون جزءا من المعسكر الشيوعى . بل إن لدينا شواهد عديدة تؤكد أن الاتحاد السوفيتى والصين لا يشجعان على مثل هذا النوع من الانتماء لأسباب تتعلق بالقدرة على تدعيم هذا الانتماء وصيانته ، وأخرى تتعلق بالأيديولوجية الماركسية ذاتها التى تسلم بأن الثورات يجب أن تنبع من الداخل وأن التطور لا ينبع من علاقات تسلطية تربط بين الدول الاشتراكية .

وإذا كانت الدول الأفريقية التى لم تتعرض لانقلابات عسكرية قد استوعبت طبيعة النظام الدولى المعاصر واستطاعت التعامل معه بحرية أكبر ، إلا أن الحركات الثورية التى لاتزال تناضل من أجل تحقيق الاستقلال الوطنى قد استوعبته بدرجة أكبر وتمكنت من التأثير عليه بدرجة أعظم . وليس هناك فى الواقع وجوه شبه كبيرة بين حركات التحرر الوطنى التى ظهرت فى أفريقيا خلال الخمسينيات وحركات التحرر الوطنى التى نشهدها الآن فى هذه القارة . والسبب فى ذلك يعود إلى اختلاف طبيعة الاستعمار والمعانى الحقيقية للاستقلال السياسى . وفضلا عن ذلك نلاحظ أن السكان البيض فى المستعمرات الأفريقية الآن يشكلون الغالبية العظمى ، بينما لم يكن ذلك كذلك بالنسبة للدول الأفريقية قبل تحقيق استقلالها(٤٠) .

والواقع أن التفرقة بين دور المستوطنين البيض فى الدول الأفريقية والشركات العالمية الكبرى تعد ضرورية إذا ما أردنا فهما أعمق لما يدور فى هذه الدول الآن . فالمستوطنون البيض هم عادة من صغار الرأسماليين . ومن الطبيعى أن تتعارض مصالحهم مع مصالح رأس المال العالمى

---

(٤٠) وذلك باستثناء الجزائر وكينيا . ويلاحظ أن هاتين القطتين ترتبطان ببعضهما ارتباطاً وثيقاً ، ذلك لأن الفارق بين الاستعمار التقليدى والاستعمار الحديث – من وجهة النظر العملية – غالباً ما يتمثل فى وجود أو عدم وجود المستوطنين الاستعماريين . لمزيد من التفصيل انظر :

Fieldhouse D.K. The Colonial Empires: A Comparative Study From the Eighteenth Century; London; 1966; The Theory of Capitalist Imperialism; London; 1967.

الاحتكارى . وعلى ذلك تصبح أحد النتائج التى أسفر عنها الاستقلال الوطنى فى أفريقيا انتصار وسيطرة رأس المال العالمى الاحتكارى ، وتضاؤل دور المستوطنين البيض . وعندما حصلت كل من الجزائر وكينيا وغانا على استقلالها ، اضطر المستوطنون البيض إلى مغادرة هذه البلاد حاملين معهم كل ما استطاعوا ابتذاذه من مال ، تاركين إياها فريسة للشركات العالمية الاحتكارية[٤١] .

وهكذا يبدو واضحاً أن أفريقيا التى حققت استقلالها ما لبثت أن وقعت فى قبضة الاستعمار الجديد ، ذلك الاستعمار الذى يتمثل فى رأس المال الأجنبى الاحتكارى والديكتاتوريات العسكرية الوطنية . والملاحظ أن الجيش فى أغلب الدول الأفريقية لم يكن هو القوة الوحيدة التى شكلت سياساتها ، بل إن قوى أخرى عديدة أسهمت فى تشكيل هذه السياسات . وفوق كل ذلك هناك الجماهير التى ناضلت بضراوة من أجل تحقيق مطلب الاستقلال . ففى سنتى ١٩٦٣ و ١٩٦٤ تمكنت الحركات الشعبية فى كل من الكونغو (برازافيل) وداهومى وجابون وزنزبار والسودان من الإطاحة بالحكومات الديكتاتورية فى هذه البلاد[٤٢] . وفى أغلب هذه الحالات لعبت الشعوب دورا سياسيا بارزا . إن ممارسة الجماهير للعمل السياسى هو أول خطوات التقدم الاجتماعى . وحالما تبدأ هذه الممارسة فإن من الصعب على الجماهير التخلى عنها . ولعل ذلك هو السبب الذى جعل القيادات العسكرية فى أفريقيا تبعد الجماهير عن أى نشاط سياسى . غير أن الشواهد التى بأيدينا عن أمريكا اللاتينية وجنوب شرق آسيا تجعلنا نذهب إلى أن هذا الموقف لن يستمر طويلا . ومع ذلك فإن دور الجماهير فى العمل السياسى يتوقف – إلى حد كبير – على طبيعة أو نوعية حركات الاستقلال . ففى الدول التى لاتزال تحارب حتى الآن من أجل تحقيق الاستقلال نجد حركة الاستقلال تسعى إلى تجنيد الفلاحين والعمال والمثقفين فى شكل قوة منظمة

---

(٤١) وهنا نود أن نؤكد دور خطوط الدفاع التى تستند إليها الشركات العالمية فى تدعيم مصالحها فى الدول الأفريقية . وتتمثل هذه الخطوط فى البرجوازية الوطنية التى ملكت مقاليد الحكم بعد تحقيق الاستقلال ، ثم البيروقراطية العسكرية التى قد تظهر إلى حيز الوجود إذا ما أخفقت البرجوازية الوطنية فى مواجهة الأعباء المالية الدولية ، وأخيراً الدول الاستعمارية التى تدعم هذه الشركات . للتعرف على ديناميات هذه العملية انظر :

Nkrumah; K; Neo Colonialism: The last Stage of Imperialism; op. cit; Rodney; W; «The Imperialist Partition of Africa; Monthly Review; 21; 11; 1970; Winslow; E.M; The Pattern of Imperialism; N.Y; 1948.

(٤٢) على الرغم من أن الجيش لم يتدخل لصالح الشعب إلا فى حالة زنزبار . ومع ذلك تظل الحقيقة الأساسية باقية وهى أن هذه الدول قد شهدت صراعاً بين مصالح شعوبها ومصالح الصفوة المرتبطة بالاستعمار الجديد . انظر لمزيد من التفصيل :

Balandier; G; The Sociology of Black Africa; Trans. D. Garman; London; Deutsch; 1970.

متجانسة قدر الإمكان تحت شعار قوى هو إحراز الاستقلال من قبضة الأمم الغنية كما هو الحال فى غينيا البرتغالية وفيتنام . ولعل ذلك يقودنا إلى القول بأن التحرر من الاستعمار الجديد لن يتحقق إلا من خلال نضال حقيقى ، تشترك فيه الجماهير اشتراكا فعليا من أجل صنع مستقبلها ، تلك هى البداية من أجل صنع مستقبل أكثر حرية وإشراقا .